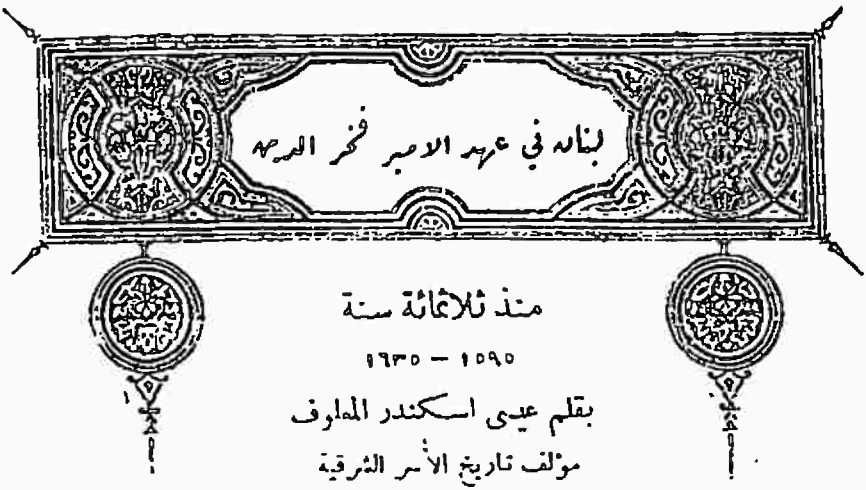

٢

عودة المعني الى الوطن

فتاوض فخر الدين الفرندوق ، واخبره بشوق والدته اليه والى اهل بيته ، واستأذنه بالسفر . فلما رأى الحاجه اذن له ، بعد اخذ وردّ كثير ، فسافر الى البلاد ، ونزل في عكا في ٩ شوال من سنة ١٦١٧ ، بعد غياب نحو خمس سنوات عاد فيها مرةً سرًّا ورجع الى بلاد غربته . فلما علم الناس بقدومه ساروا مواكب مواكب بهرجان عظيم لاستقباله . فوصل دير القمر . وبقيت الوفود تأتي اليه شهودًا من كل فجّ وصقع حتى اطراف البلاد ، حاملين اليه الهدايا مستبشرين به خيرًا ، وكان بين الحشد كثيرون ممن اتخذوا الرياء ديدنهم ، وبينهم آل سيفا الذين رفضوا هديتهم وصرّح لهم باستيائه منهم لحرق داره بغيابه . فاضمروا له الشر .

وعاد المعني لاستمالة الدولة العثمانية في الاستانة بسفراء مخلصين ، فوثقت باخلاصه رغم الوشايات الكثيرة به . ولكنه اخذ يقتصّ من اعدائه ومضايقهم ، وبينهم آل سيفا الذين هدم بعض حصونهم وبيوتهم في طرابلس وعكار . وهكذا امتدت سلطته من انطاكية الى الكرمل . ونال لقب «سلطان البرّين» مثل جده لابيه فخر الدين الاول . وشرع في التحصين والتعمير وعقد المعاهدات وترويج التجارة ، فاثرى من مشاريعه الاقتصادية ، وعمّ العمران بلاده حتى

صار دخل خزينته السنوي نحو تسعمائة الف ليرة ؛ كان يرسل منها الى الخزينة السلطانية ثلاثمائة واربعين الف ليرة . وتمكن بدربته ودرايته وما بذله من العناية بالتجنيد والتهيئة على الطرق الفنية في ايامه أن يجمع في اثناء عشرة ايام عشرة آلاف جندي مدرَّب او اكثر ، فوق ما كان عنده من السكمان المرابطين في الثغور ، وهم اكثر من الف رجل . وكثر عنده القواد والاطباء والمهندسون والبناؤون والصناع وغيرهم من التوسكانيين والمسيحيين الوطنيين وسواهم كان يراقبهم بنفسه.

فعدل في احكامه وأَمَّن الطرق ونشر العمران . ولكنه ارهق البلاد بالضرائب. فكثر موارد الحكومة العثمانية واسترضى رجالها بهداياه وتقادمه الكثيرة حتى تضايقت الرعية منه . ولضبط اعماله اتخذ سجلّين : احدهما يدوّن فيه اسماء سكان ولاياته محصياً اعمارهم وصفاتهم ومطارفهم وشؤونهم . وثانيهما يدوّن فيه عدد الاشجار المثمرة وكروم العنب وشجر التوت ، متقاضياً عن الناس الخرج وعن الاشجار الخراج . وكان ينتهز فرصة فراغه من اعماله السياسية والادارية فيرصد ساعات خاصة لمراجعة هذه القيود ، وضبط الحسابات ، والتدقيق في الدخل والخرج ، ناظرًا بدقة الى كل عمل بعين نقادة وفكر مدقق ، قاتلًا نهاره ومحيياً ليله في انجاح رعيته وحفظ مركزه وتكثير ثروته.

مطارفه وجبه للعمراء

ولم يكن هذا الحاكم اليَقِظ النابغة الداهية مقتصرًا على هذا فقط ، بل كان يحب العلوم واقتباس المعارف ، مقرّباً اليه الكتّاب والشعراء ، مجزلًا لهم الصلات ، مولعاً بعلم الكلام (اللاهوت) ومحباً للمباحث الكيماوية والتصوير ، ومهتماً بالادوية المفردة ، حتى استخدم لذلك مصورًا افرنسياً رسم له نحو الف وخمسمائة نوع من النباتات بصفاتها والوانها وخواصها . وكثيرًا ما كان يقترح على العلماء والمهندسين والشعراء مواضيع يجيدون بها في تلبيته،من ذلك انه اقترح على صديقه المطران جرجس عميره ، اسقف اهدن الماروني الذي صار بطريركاً ، ان يؤلف له كتاباً في هندسة الابنية ؛ وجمع بعضهم مدائحه في اكثر من مائة

صفحة ذكر المحبي في خلاصة الاثر انه رآها واخذ منها . والف النجم الغزي رسالة في المعني والحاج كيران في بعلبك وقتله اياه . ولم نقف على شيء من هذه الكتب مع كثرة تنقيبنا عنها . ومثلها كتاب مجموع الاحزان في مراثي الامير قرقماس المعني والد فخر الدين اما كتاب الشيخ احمد الخالدي الصفدي في الامير وحوادثه ووصف رحلته الى اوربة وما شاهده فيها فقد ظفرت باكثر من نسخة منه نقلتُ معظمها الى مجلتي الآثار

وعرَّب فخر الدين رواية ماتيلده عن الايطالية . وقال الاب اوجين في الصفحة ٢٩٣ من كتابه « الارض المقدسة » الذي ذكر فيه زيارته للمعني : ان فخر الدين اوقفه على كتاب الفه في تاريخ اسرته المعنية . فنقل منه فقرة . ولم نعلم شيئاً عن هذين الكتابين . لان اوراق المعني وموجوداته صادرتها الحكومة على اثر القبض عليه ، ونقلتها الى الاستانة ، وصادرت جميع مريديه فهرب الخوازنة الى توسكانة وضبطت اوراقهم .

ولتسهيله سبل التجارة للافرنج زاره في ايام حكمه المغاربة واليونان واليهود فضلاً عن الافرنج فسكنوا الثغور البحرية ، وامتدت فيها تجاراتهم متصلة بالمدن الداخلية والساحلية الى العراق والهند وآسية الصغرى وبلاد العرب ، ومصر والمغرب الى جزر البحر المتوسط والارخبيل . فربطت الشرق والغرب بعلاقات مهمة حملت كثيراً من سكان بلادنا على المهاجرة الى توسكانة وما اليها ، كما جلبت كثيرين من سكان تلك الجهات الى بلادنا فتديروها وبقيت سلائلهم فيها . ووثق عرى المعاملة مع البنوك (المصارف) . واقتنى مركبين حربيين استعملها للتجارة ايضاً ، كان فيها خمسون بندقياً من بيروت ، ورفع تعدي القرصان عن المراكب .

اما الزراعة فانه اعتنى بها ، وبتربية المواشي ، وتوفير الخصب بالذرائع الفنية . وكان اول من شرب الدخان (التتون) بالغليون ، وادخل زراعة التبغ الى بلادنا ، وكذلك الرز ، والقطن ، ولا يزال اسم « المقطنة » و« مرج القطن » في دير القمر دليلاً على حلجه وزراعته . وعزز تربية دود الحرير وحلّ فيالجه (شرانقه) ؛ وزراعة القنّب ، واتخاذ الخيوط والحبال منها . وتجفيف المستنقعات ، وتشييد

الجلنار ، وبرّ المياه ، وغرس الاشجار ، ولاسيما في غاب الصنوبر في بيروت وحدائقها الآتي بيانها .

وادار نظره الى الصناعة فاكثر من معامل الصابون ، ومعاصر الزيت والصبّ ، ومشاغل النسج ، ودواليب حلّ الحرير ، فضلاً عن الصناعات الوطنية كالنجارة والحدادة والصباغة والبناء . فكلف بتشييد الابنية على طراز شرقي او توسكاني ورومانى . ومن آثاره العظيمة خان الافرنج في صيدا الذي فيه مائة غرفة[1] وكذلك ابنية دير القمر كالخرج وغيره ، وابنية صيدا ، وكلها لا تزال عامرة .

اما بيروت فقد نُقض آخر قصوره فيها في السنة الماضية كما كتبت عن ذلك في الصحف ، آسفاً لهدم آخر قصر للمعني تحته اصطبل الخيول وهو بين تل (لوكندة) ساقوى والفندق العربي الى غربي قصر الحكومة ، في آخر ساحة البرج لجهة البحر ، حيث يبني محل قصر المعني الآن عبود بك عبد الرزاق العكاري ، نائب طرابلس ، محلات تجارية ، ومن العجيب ان يكون المعني قد هدم قصور آل سيفا في عكار وجلب بعض حجارتها الى دير القمر . والان يأتي رجل من عكار فيهدم آخر ابنيته في بيروت . . .

ابنيته وحدائقه في مدينة بيروت

كل من يمر اليوم « بساحة البرج » التي سميت اخيراً « ساحة الشهداء » يمكنه ان يتصور ان كل هذه الفسحة مع ما حولها من الابنية كانت حديقة للحيوانات وابراجاً وقصوراً واصطبلات للخيول ومرابض للاسود وقراعد للنمائيل ، وذلك عندما اتخذ المعني بيروت قاعدة لحكمه سنة ١٦٣٢ . فكان هو يعمّر ونحن اليوم نخرّب آثاره بعد ثلاثمائة سنة .

ولكي اصوّر لكم ابنيته وحدائقه اعرّب لكم كلام السائح الانكليزي

---

(١) في هذا المكان حفظ دريكالو ، قنصل فرنسة في صيدا النصارى سنة ١٨٦٠ ، فانقذهم من المذابح ، لانه كان مسكناً للقناصل . وذلك القسم هو الآن مستثنى للحكومة الفرنسية . اما القسم الثاني من المكان فهو دير للآباء الفرنسيسكان ، وكنيستهم فيه تسمى « ترا سنتا » اي الارض المقدسة والقسم الثالث منه هو الآن ميتم ومدرسة لراهبات مار يوسف . فتأمل كيف هذا المكان الذي وصفه الرحالة موندرل الانكليزي كما سترى .

الرحالة هنري موندرل ، الذي دخل بيروت في ١٨ آذار سنة ١٦٩٦ ، اي بعد ستين سنة من قتل المعني ، وهو الذي وصف ذلك شاهداً عياناً في كتابه « من حلب الى اورشليم »[1] ، من الصفحة ٤١٤ فصاعداً قال :

« سميت بيروت باسم بعل بيريت ، ولقبت جوليا فيلكس اي السعيدة . . . وكان قصر الامير فخر الدين فيها ، وهو رابع امير من اسرته ، والعامة تزعم ان اصله من الصليبيين الذين بقوا وتشتتوا في البلاد . . . فزرت ذلك القصر في الشمال الشرقي من المدينة . وفي مدخله صهريج ضخم من اجمل ما رأيت في المملكة العثمانية بقوارته (نوفرته) وفي القصر غرف للمحاكم كثيرة اصبحت الآن خراباً وبعضها لم يتم بناؤه . وهناك اصطبلات للخيول ، ومرابض للسباع والوحوش ، مما لم أرَ مثله الا في قصور الملوك .

« واجمل ما في القصر حديقة البرتقال . فهي مقسومة الى ١٦ مربعاً كل اربعة منها في جهة ، وبينها تماثيل مرصوفة بالحجارة وفيها اقنية لجر المياه المتفرقة فيها للسقيا . والجدران مظللة باشجار الليمون النضرة . وكان فيها بستاني انكليزي يرتبها على النسق الذي شاهده الامير في سفرته الى توسكانة وما حولها وعمل مثله مما لم يكن في الشرق . ولكن هذه الحديقة امست الآن مرعية للمواشي كالغنم والمعزى .

« وفي شرقي هذا البستان تمثالان مرتفعان احدهما فوق الآخر يصعد الى كل منهما باثنتي عشرة درجة تؤدي الى مصيف بهج في الشمال ، كان الامير فخر الدين يجلس فيه مع بطانته في ساعات اشد على نمط ما رأى عند امراء توسكانة ايضاً .

---

(١) هو الرحالة H. Maundrell الانكليزي الذي رحل الى القدس في عيد الفصح من حلب . ورحلته في مجموعة « رحلات قديمة في فلسطين » *Early Travels in Palestine* طبعت في لندن سنة ١٨٤٨ في ٥١٧ صفحة بقطع الثمن : ورحلة موندرل فيها من الصفحة ٤٨٢–٥١٢ غير مصورة . ثم وجدتها مطبوعة على حدة مصورة وهي من ٢٦ شباط سنة ١٦٩٦ الى شباط سنة ١٦٩٧ ، ونقلت منها هذه القطعة معربة باختصار قليل ، وقد وصف الرحالة بعض آثار بيروت وما يجاورها . والكتابان في خزانة الجامعة الاميركية في بيروت ، نقلت بعض الرسوم المتعلقة بتاريخ المعني عن احدهما .

«ورأيت في حديقة اخرى قواعد للتماثيل التي كان الامير ينوي نصبها عليها كما في متاحف بلاد الفرنجة وحدائقها العامة وهي مما يأباها المسلمون.

«وفي زاوية هذه الحديقة برج علوه ستون قدماً وكثافة جدرانه اثنتا عشرة قدماً وهو للمراقبة».

انتهى قول السائح الانكليزي.

اقول: واراد بهذا البرج برج الكشاف الذي كان موقعه في زاوية ساحة البرج الشرقية الجنوبية على يسار الداخل في طريق النهر، حيث هناك الآن خان البرج، وهو جزء منه بقي عموده وجداره فقط. وكان يشرف على طريق طرابلس وطريق الشام وصيدا والبحر فلذلك سمي الكشاف. وكثير من الشيوخ شاهدوه في منتصف القرن الماضي وما بعده بقليل قبل ان هدم وشيدت مكانه الابنية الحاضرة في شرق ساحة البرج الجنوبي.

ومما ذكره موندرل عن بيروت مما له علاقة بالمعنى قوله: «في ١٩ آذار ذهبنا مسافة ثلث ساعة الى سهل عظيم يمتد من البحر الى الجبل، وفي بدئه غاب صنوبر زرعه فخر الدين[1] ونظن انه نصف ميل.» (اهـ)

وفي الصفحة ٤٢٠ قال: «وعلى هذا النهر (يريد نهر الدامور) التقينا بعدد من التجار الفرنسيين من صيدا لهم شغل هناك في المدينة. فنصبنا خيامنا خارجاً عنها. ولكن تجار فرنسة ادخلونا الى محلهم في الخان الكبير[2] المجاور للبحر حيث القنصل وكل الشعب يسكنون معاً.

«وهناك الميناء الذي طمره فخر الدين لمنع الاتراك من الدخول اليه باساطيلهم[3] فالمرفأ مسدود، وكل المراكب المشحونة او الشاحنة تعتصم بخليج

١) كثر عند القدماء نذر الاشجار لآلهتهم. فلعل شجر الصنوبر خصص بالاله (بيريت) الذي كان هيكله في بيروت وسميت المدينة به، فيكون معاصراً لها منذ القديم. او انه غرس لمنع الرمال التي تنسفها الرياح على المدينة فتطمر بعض ابنيتها، فيكون منذ سدّت الرمال من جهة الاوزاعي البحر، لان بيروت كانت قديماً جزيرة كما ذكر بعض الجيولوجيين.

٢) يريد به خان الافرنج الذي سبق ذكره في هذه المقالة.

٣) انكر علامتنا واستاذنا الاب لامنس اليسوعي في كتابه «تمريح الابصار» القول بطمر ميناء صيدا.

صخور على بعد ميل من الشاطئ في شمالي المدينة . وهناك اطلال طمرها الاتراك . وفي جنوبي المدينة قلعة على رابية يقال انها من بناء الملك لويس التاسع الفرنسي الملقب بالقديس . وعلى مقربة منها قصر لفخر الدين غير كامل البناء يستخدمه الحاكم لبعض اعمال . »

الامير حسين ابو الامير فخر الدين

ولد في دير القمر في ١٤ ذي الحجة سنة ١٦٢٠ م ، ووالدته ابنة الامير علي سيفا ، شقيق يوسف باشا حاكم طرابلس . فاسره الوزير خليل الباشا ، الصدر الاعظم ، من قامة المرقب صغيراً . ونقل الى حلب ، ثم الى الاستانة في خدمة الصدر المذكور . فدرس علومه في مكتب سراي غلطه . ثم نقل الى السراي الكبيرة ، عند السلطان . ثم الى « خاص اوطه » وترقى في الرتب السلطانية الداخلية في السراي العثمانية حتى صار كتخدا الخزينة السلطانية ، وابى قبول رتبة الوزارة التي عرضت عليه . ثم خرج كعادتهم برتبة الخواجكانية ، وهي كتابة الدولة على القواعد العثمانية ، وتولى مناصب عديدة بمقتضى الرتبة المذكورة . فارسله السلطان محمد خان ابن السلطان ابرهيم خان ايلجياً (سفيراً) الى سلطان الهند ، فمرَّ بصيدا حيث استقبله نسيبه الامير احمد المعني ، آخر حكامهم ، والامراء الشهابيون ، حكام وادي التيم ، وبعض الاعيان واجتمعوا به في حاصبيا . وعرضوا عليه حكم البلاد فلم يقبل .

فاستأنف سفره الى الهند وعاد الى القسطنطينية مكرماً ومتمماً ما انتدب اليه . ولما توفي نسيبه الامير احمد حاكم لبنان بلا ذكور ، وانتقلت الامارة الى الشهابيين اصهاره ، اعترض الامير حسين على تعيين الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي امير راشيا لانه ابن اخت المعني احمد باشا آخر حكامهم في لبنان . وقرر ان حق الوراثة هو للامير حيدر ابن الامير موسى وهو سبط (ابن بنت) الامير احمد المذكور . فعملت الحكومة برأيه ، فوضعت الامير بشير وكيلاً للولاية

الى ان يبلغ الامير حيدر القاصر اشدّه فيجلس على تخت الولاية[1] . وعندي رسالة للعلامة السمعاني بهذا الشأن.

وكان الامير حسين المعني عالماً شاعراً مؤلفاً ، متضلعاً من السياسة العثمانية مطلعاً على انظمتها يغلب عليه التقى والصلاح. وكان صديقاً لمصطفى نعيما الحلبي[2] صاحب التاريخ التركي المشهور ، وعنه اخذ ما كتبه عن لبنان وحكامه وخاصة عن الامراء المعنيين . وذكر له نعيما بعض مؤلفات منها « تراجم علماء عصره » لم اقف عليها ، ولعلها في الاستانة. لكنني وقفتُ منها على « منتخب التمييز في المحاضرات والادبيات » واستنسخته[3] . اما المطول فلم اقف عليه وهو في احدى خزائن الاستانة وفي خزانة شيخ الاسلام في المدينة المنوّرة.

وتوفي الامير حسين هذا في الاستانة سنة ١٦٩٧ . وكان جميل الصورة نجيباً. ومن شعره قوله :

رأيتُ النمل ينقع وهو قصدٌ ورمي في المهالك اذ يزيدُ
كمثل الماء يُروي منه قدرٌ ويُهلك منه بالفرق المزيدُ

---

١) ذكر هذا الامير حيدر احمد الشهابي المؤرخ في الجزء الثاني من مخطوطة تاريخه ، في خزانتي كتبت سنة ١٨٤٤ ، وهي وفق نسخة الامير حيدر التي كتب عليها بخطه في الخزانة الشرقية للآباء اليسوعيين نقلت عنها بالحرف بخط المحوري بطرس صفير ، مرشد الامير حيدر اسماعيل الاسمي ، وذلك في الصفحة ٢

٢) هذا المؤرخ من اسرة كوچك علي آغا . اصلهم من ديار بكر ، جاب السلطان العثماني جدهم علي آغا الصغير (كوچك) الى حلب لتكثير الاعيان فيها ولا تزال بقيتهم هناك . وتاريخ نعيما طبع ثلاث مرات باللغة التركية فكل من الطبعتين الاولتين في سبعة مجلدات والطبعة الثالثة في ستة مجلدات ، وحوادثه تنتهي في سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٦٩ م) وفيه فوائد مهمة عن الدولة وولاياتها وحكامها.

٣) كتبت في وصف هذا المخطوط مقالة في مجلة المشرق (٢٧ : ٨١١) فراجعها وطالع نخبة من هذا الكتاب فيها ، وترجمة الامير حسين هذا.

(له صلة)